إميل

ألف هذا الكتاب «جان جاك روسو» ونقله إلى العربية الدكتور نظمى لوقا.

والكتاب، كما يقول الدكتور أحمد زكى فى مقدمته يعتبر فاصلا بين عصرين فى التربية: التربية القديمة والتربية الحديثة التى يراها «روسو» تتمثل فى الاهتمام بثلاث.

طبيعة الطفل ثم المعلم ثم الحياة نفسها ولهذا ينادى بأن وظيفة التربية (ازالة الصعوبة وكل ما يعوق الطبيعة البشرية الخيرة عن النمو الطبيعى.

وقد قسم «روسو» موضوعه إلى خمسة كتب يتحدث كل منها عن مرحلة من المراحل.

* ففى الكتاب الأول يتحدث «روسو» عن تربية الطفل منذ ولادته حتى سن الخامسة.

* والكتاب الثانى من الخامسة حتى الثانية عشرة

* والكتاب الثالث عن مرحلة المراهقة

* والكتاب الرابع عن الشباب

* والكتاب الخامس عن تربية البنت

والخطوط العريضة فى فن التربية عند روسو تتمثل فى:

* أهمية منح الطفل الحرية منذ ولادته فهو لا يريد اللفائف والأربطه التى تقيد الطفل بل يترك حرا فى حضن الطبيعة.. فى الريف حيث الأنوار الطبيعية: القمر والنجوم، لا الأنوار الصناعية التى تزعج الإنسان فى المدن.

يقول «روسو»: (تقولون إن أول صوت يصدر عن الطفل، هو البكاء... إنكم تكرهونه على ذلك بما تكبلونه به من قيود. وتنزلونه به من عذاب فلا يجد شيئا لديه حرا إلا صوته. فكيف لا يستخدمه ليجأر بالشكوى!)

إن «روسو» هنا يذكرنى بشاعرنا ابن الرومى فى بيته:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

* أن نبتعد عن الوعظ فى تعليم الطفل الأخلاق بل القدوة الحسنة وتجنيبه الشر وتركه يوازن بين الأشياء ويستقى دروسه من الطبيعه ومن الطريف قول روسو أو الطفل حتى الخامسة عشرة يجب ألا يقرأ إلا كتابا واحدا هو كتاب الطبيعة لأن الكتب كما يقول روسو (عذاب للطفولة وألم لها)

وفى رأيى أن هذا الرأى فيه شطط.

بل يعلم الطفل القراءة والكتابة لأن التعليم فى الصغر كالنقش فى الحجر كما يقول تراثنا.

نعم نبدأ بالتعليم الموضوعى للطفل بالصورة.. بلغة المنظر.. نبدأ. كما يقول «هكسلى» بالكرافت أى التشكيل لاكتشاف المهارات والميول.

نجعل الحضانة للعب الحر.. مدرسة اللعب كما يسميها الانجليز.

لقد نص المبدأ السابع من المبادىء العشر الواردة بالإعلان العالمى لحقوق الطفل سنة ١٩٥٩ (إن لكل طفل الحق فى الحصول على قدر إجبارى من التعليم مع قدر وافر من فرص اللعب والترفيه)

ويركز روسو على أهمية تدريب الحواس منوها بقصة روبنسون كروسر الذى اعتمد على نفسه وتعلم الحياة بالحياة فاحساسات الطفل عنده هى المادة الأولى لمعارفه. وتقديم المحسوسات إليه بنظام مناسب هو بمثابة إعداد الذاكرة لإمداده بتلك المحسوسات يوما ما بذلك الترتيب نفسه.

وهو ينادى بتعليم الدين فى مرحلة الشباب وأرى أن يطبع الطفل على حياة الدين والسلوك قبل هذا بكثير أى منذ الطفولة.

لقد ذاع كتاب روسو كما يقول الدكتور أحمد زكى لأنه نادى فيه بالمساواة بين الأفراد وامتدح الرجل العادى ورفع من شأنه واعتمد على إثارة خيال الناس وعواطفهم التى كان لا يعبأ بها الكتاب-فى اوربا- من قبل.

وقد اخترت هذا الكتاب فى زمن الشعارات وفى توقيت ارتفاع الصيحة إلى (إعادة بناء الإنسان) دون أن يقول أحد كيف يبنى الإنسان.

لم يتحدث أحد عن العودة إلى الطبيعة الأم.

لم يتحدث أحد عن العودة إلى الدين فى جوهره النقى أى الضمير والتفكير والمحبة والخير.

لم يتحدث أحد عن كرامة الإنسان التى تستباح فى الداخل بالإعلام وفى الخارج بالديون والمعونات المخططة والمشروطة وهى أشد سفكا وسفحا من الديون.

أقدم كتاب روسر مع تناقضات فيه، ولكن نحاول أن نخرج بالايجابيات وهى كثيرة.

وهو كتاب يلتقى مع كثير مما يلزمنا. ولعل صدور هذه الآراء من روسو يجعلها أكثر قبولا عند ضحايا التغريب فلا تتهم بالسلفية أو الرجعية.

لقد جعل روسو تلميذه، يكتسب جميع المعارف العلمية باكتشافها ابتداء.

وأقول إن الطبيعة معلم أكبر ولكن يقوم إلى جانبها معلمون آخرون هم هداة الإنسانية وموهوبها وعباقرتها فى الفنون والعلوم وإلا إذا كان كل إنسان يبدأ من الصفر فلن تتقدم البشرية.

ومن المفارقات الطريفة كما يقول الدكتور نظمى لوقا (إن روسو الشاعر صاحب الخيال الحرية فى التربية والسياسة، يرتد سلفيا، محافظا، بل رجعيا حين يتحدث عن المرأة. فهو لا يرى لها حقافى تربية كتربية الفتى، وإنما تربى الفتاة لتكون خادمة!!! للفتى، تمسح على آلامه، وتهيىء له حاجته من ملبسه وطعامه)!!

أليس عجيبا أن «روسو» الذى يجعل التربية حجر الأساس فى بناء الإنسان، يحجم المرأة ويغل حياتها مع أنها هى عماد التربية وقد اتجه إليها بالخطاب فى الكتاب الأول وقد راعه ما يرزح تحته إنسان عصره من السبقيات والسلطان، والضرورات، والقدوة، وسائر الظروف الاجتماعية التى تستغرقه وتخنق فطرته ثم لا تعوضه عنه شيئا لنا الله نحن ابناء القرن العشرين.

عند هذه النقطة، تعلق أمل «روسو» بالمرأة إنى اتجه إليك بالخطاب أيتها الأم الحصيفة الحنون التى عرفت كيف تنكبين الطريق المطروق وتحمين النبتة البائقة من عتو المواضعات البشرية.

ومن أجمل قوله:

لو استطاع الناس أن يستيقوا فى ظل الزواج حب «الخطوبة» لأقاموا لهم فردوسا أرضيا، ولم أر أحدا أفلح من قبل فى هذا.

إن الحب عاطفة يقتلها الإكراه.. والمتعة شيء لا ينال بالأمر ولا يخضع للقهر فأحذرك أيها الشاب من أن تجعل أقدس المداعبات وأجملها ضربا من الواجب تخضع له المرأة عن غير رغبة قياما بتعهداتها الزوجية إن الرغبة المتبادلة هى اساس الحق الزوجى.

وفى الزواج لا تكون لذة الجسد شرعية إلا حينما تكون متبادلة بين الزوجين، وهيهات أن يكون الزواج مبررا للاغتصاب فليس إلا اغتصابا أن ينال الرجل لذته من زوجته وهى عنه راغبة.

وإذا استثنينا هذه (الحسنة) لروسو فإنه ظلم المرأة ظلما كبيرا.

ألم أقل إن أعظم حضارتين رفعتا شأن المرأة، بالاحترام والتكريم:

* الحضارة المصرية القديمة

* الحضارة الإسلامية

ويبدو أن المرأة ليست وحدها المظلومة مع «روسو» فإنه يناصب الأطباء، العداء، أيضا نسمع معا إحدى غرائبه:

الجسم الهزيل يضعف الروح. ومن هنا يأتى سلطان الطب الذى أراه أشد إيذاء من جميع الأمراض التى يزعم شفاءها. وأنا شخصيا لا أعرف من أى مرض يشفينا الأطباء إن الجانب الوحيد المجدى من علم الطب هو علم الصحة بيد أن علم الصحة. فضيلة أكثر منه علما فالاعتدال والعمل هما الطبيبان الأوحدان الحقيقيان للإنسان.

وأكثر من هذا قال «روسو»!!

***

ويلمح «روسو» الفروق فى الحياة فيقول (إن الشخص الطبيعى يعيش لنفسه، فهو الوحدة العددية، وهو الكل أيضا بالإطلاق ولا يتعلق وجوده إلا بنفسه وبنظرائه أما المواطن فهو وحدة

سرية. هو بسط مقامه الوطن.. وقيمته ليست فى ذاته بل تتعلق بالكل. وبنسبته إلى ذلك الكل الذى هو الهيئة الاجتماعية.

ويعرف «روسو» الحياة بقوله:

(الحياة ليست نفسا يتردد بل هى نشاط، واستخدام للجوارح والحواس والوظائف الحيوية، من سائر عناصر كياننا. وليس أعظم الناس نصيبا من الحياة من سلخ فيها سنوات أطول، بل من مارسها أكثر من سواه).

ويغضب روسو من اللاتى يتقاعسن عن رضاعة أبنائهن فيقول فى ثورة غضب (اعتقد انه خير للطفل ان يرضع لبن أم صحيحة البنية من أن يرضع لبن أم مدللة. إذا فرض أن هناك ما يخشى أن يلحقه منها أدهى مما ورثه من دمائها). وحجته فى هذا وهى صادقة أن الأم ليست ، الثدى (إن امرأة غيرها أو دابة، قد تمنحه اللبن الذى تضن هى به عليه، أما حنان الأم فلا يستعاض عنه) بل يعتقد «روسو» أن (الحرمان من لبن الأم هو الأصل الذى نبعت منه جميع الشرور).

ويقول (جاذبية الحياة البيتية هى أفضل ترياق للأخلاق السيئة وتمسى ضجة الأطفال التى يضيق بها البعض محببة، ويزداد إعزاز الآباء والأمهات بمتانة الرباط الزوجى بينهم. ومتى ارتدت النساء أمهات ارتد الرجال سريعا آباء وأزواجا).

وينعى «روسو» على بعض الأمهات فرط التدليل إذ لا تدرى الواحدة منهن (أنها بتلك الشفقة تهيل على رأسه النكبات إذ يظل ضعيفا ويشب ضعيفا فهن يغمسن أبناءهن فى الرخاوة بذلك التدليل فيحكمن عليهم بالعذاب المستمر حين يواجهون الحياة من غير جلد على المقاومة).

ويقول:

(راقبوا الطبيعة وأنظروا كيف تبين لكم السبيل. فإنها تعمل على تمريس الأطفال بالأحداث والأشياء وتعلمهم منذ البداية كيف يكون الألم.. فالأسنان تنبت لهم بالحمى. والسعال الطويل يخنقهم. والديدان تعذبهم. والخمائر الطفيلية تقسر عليهم وتعرضهم لكثير من الأخطار.. ولكن متى مرت المحنة يكون الطفل قد اكتسب مناعة). إن الألم الأعظم، عذاب الروح وعنده أن الشخص الذى لا يعرف الألم لا يمكن أن يعرف الحنان الإنسانى ولا عذوبة الرحمة والشفقة لأن قلبه لن يتحرك لشىء ولن يكون اجتماعيا.

ويحذر «روسو» من كثرة الأوامر والنواهى فى عالم الطفل حتى لا تطبع نفسه على التحكم أو الاستعباد سواء أكان آمرا أم مأمورا.. وحتى لا نبذر فى قلبه الصغير، بذور الشر ثم تملأ الدنيا شكوى من شره.

ومن الطريف قول «روسو»: (مادامت العبودية المدنية والاجتماعية تبدأ من سن الرشد، فلماذا نتعجل البلاء بأن نرهق الطفل منذ حداثته بالعبودية الشخصية والرق الذاتى؟).

وينحو «روسو» باللائمة على الأمهات والآباء الذين يتعللون بضيق الوقت عن تعليم أطفالهم وتربيتهم مقارنا هذا بما يقوله «بلوتارك» عن أغسطس وهو امبراطور كيف كان يقوم على تعليم أحفاده بنفسه الكتابة والقراءة والسباحة ومبادىء العلوم وكيف كانوا يحفون بعرشه على الدوام يقول «روسو».

(ما من صورة تحرك القلوب وتأسرها كصورة الأسرة)

ويؤمن «روسو» بالريف فعنده، المدن، تلتهم ساكنيها وتفتك بهم، وبعد أجيال من حياة المدينة يشيع الانحلال الصحى وتصاب السلالة بالهزال أو العقم ولا يمكن تجديد حيويتها إلا عن طريق الريف.

وينادى «روسو»: (لا تجادلوا الأطفال) فلو أن الأطفال ذوو إدراك وعقل حقا لما كانوا بحاجة إلى تربية).

كما ينهى عن السماح للطفل بضرب أحد ولو كان خادمه لأن (من يضرب الناس وهو صغير يقدم على قتلهم وهو كبير).

ويعالج «روسو» الخوف عند الأطفال بالدعوة إلى تنشئة الطفل متعودا على الظلام والسلوك فى الليل. واستعمال رجليه ويديه مهما كانت شدة الظلام من غير وجل فإن مخيلته تكون ممتلئة بالألعاب البهيجة التى اقترنت بالظلام فى حداثته. لن تخيل إليه الأشياء المفزعة. ولن يفزعه الليل. بل يحبه ويثير فى نفسه الطمأنينة والابتهاج.

ويدعو «روسو» إلى تعليم الطفل الرسم ودراسة الهندسة عن طريق القياس الدقيق للأشياء والأشكال ثم البحث عن العلاقات بينها ويعترض «روسو» بشدة على تعليم الهندسة بعرض منطوق النظرية ثم البحث بعد ذلك عن إثباتها.

ويدعو «روسو» أيضا الى تنمية الملاحظة أثناء اللعب عن طريق العين والأذن والأصوات لتقدير المسافات.

كما يدعو «روسو» إلى تعويد الطفل على الشعور بمنفعة ما يتعلمه وجدواه وبذلك يتعود ألا ينقاد انقيادا أعمى فى أعماله وأفكاره. وننمى فيه روح المبادأة.

ويدعو «روسو» إلى تعلم الحرف. وليس الغرض عنده من تعلم المهنة، التكسب بها حتما، بل الغرض الأكبر القضاء على المزاعم الخاطئة التى تفشت بين الناس بصدد العمل اليدوى. ثم يجنح روسو الى المبالغة كعادته فيقول:

(إنى أريد (للطفل) أن يتعلم مهنة شريفة نافعة، لا مهنة ترف. لا أريد له أن يكون مطرزا أو مذهبا أو موسيقيا أو ممثلا أو مؤلفا!- روسو كاتب مؤلف- بل أفضل أن يكون إسكافا على أن يكون شاعرا)!!

ويبدو أنه أحس بوقع ما يقول فأجاب على سؤال صامت: (ولم لا؟ أليس القيصر بطرس الأكبر كان يعمل بيديه فى منشر الخشب بالأجر كأى عامل، ويقرع الطبل فى فرق جيشه كأى جندى؟)

ولكن كلام «روسو» هذا مردود عليه بأن الأنبياء زاولوا أعمالا يدويه مختلفة قبل الرسالات ولكن القرآن الكريم استهل بالدعوة إلى القراءة وأقسم بالقلم.

(أقرأ باسم ربك الذى خلق).

(ن والقلم وما يسطرون).

***

ويلوم «روسو» علم التاريخ على إبرازه الحوادث أكثر مما يبرز الرجال.

ولو عاش «روسو» فى عصرنا لرأى كيف تبرز المدرسة المصرية الأشخاص أكثر مما تبرز الحوادث فالهرم بناء خوفو. وحطين انتصر فيها صلاح الدين ونسيت أن الهرم بناء المهندس والفلكى والجيولوجى والإدارى البارع الذى قاد هذه السيمفونية الفائقة.

ونسيت أن النصر فى حطين كان وراءه موقع مصر الفريد وطاقاتها فى الرجال وقدراتها فى المال ووراثاتها الحضارية وإيمان شعبها الذى وقف وراء المعركة.

وأروع ما فى كتاب «روسو» على الإطلاق، لحظات نقاء... وقفت طويلا عند هذه الكلمات.

(إن أعرف الله فى كل مكان من خلال مخلوقاته. أحس به فى نفسى وأراه فى كل ما حولى. أما كنهه وحقيقته وماهيته فخارج نطاق عقلى. إنها مسائل تند عن ادراكى ولا يستطيع عقلى الكليل أن يجلو غوامضها.

وبسبب هذا العجز آليت على نفسى ألا أفكر إطلاقا فى طبيعة الله، إلا فى حدود إحساسى بما بينى وبينه من علاقات. ولكن أفكارى فى ذلك الموضوع خاضعة على الدوام، أستشعر لها الاضطراب والرعدة. فخليق بنا أن نعلم أن الله ليس كمثله شىء. وليس تقصيرا منا ألا نفكر فى ماهيته، ولكن التقصير كل التقصير أن نفكر فى ماهيته بغير ما يحق لها من جلال.

***

ويتكلم «روسو» عن «الذوق» فيرى أن الذوق فطرى فى جميع الناس ولكنه ليس على قدم المساواة لدى الجميع.. فالحساسية والثقافة والبيئة لها آثارها. وكلما اتسعت آفاق البيئات التى يرتادها الإنسان، اتسعت أمامه الفرص لعقد المقارنات.

و «روسو» يرى (حسن الذوق يقترن بحسن الأخلاق)

ويطرح «روسو» سؤالا:

- هل من الواجب تنوير الأطفال منذ وقت مبكر بخصوص الأمور التى جرت العادة على إخفائها عنهم؟

وهو يجيب:

* إن هذه المعلومات الجديدة غاية فى الأهمية. وينبغى أن تكون جادة واضحة ونظيفة.

ويجب عند المصارحة أن أتخير المناسبة. والزمان والمكان، وأن أحدثه فى الموضوع ببساطة ورزانة، ولكن ليس فى جفاف.

***

وعندما شارف الكتاب، النهاية ذهب «روسو» إلى الريف للبحث لربيبة اميل. عن الحب والسعادة والطهر فى صورة فتاة نموذجية نسميها من الآن كما يقول (صوفى).

إنها صورة للفتاة فى نظره ولاتهم الأسماء وهذه هى الصفات التى خلعها على الفتاة:

* صوفى طيبة المولد، سليمة الفطرة ذات قلب شديد الحساسية.

* ليست صوفى بالجميلة، بيد أن الرجال ينسون فى محضرها جميلات النساء..

* صوفى تحب الزينة والأناقة.

* إنها ذات حياء فى ملبسها.

* صوفى ذات مواهب طبيعية.

* وهى ذات حذق فى كافة أعمال المنزل.

* وصوفى ذات دين.

***

لو رشح «روسو» نفسه لفاز بالأغلبية بين أصوات الرجال. أغلبية حقيقية بدون حاجة إلى نظام القوائم ليفوز.

ويبدو وأن عقدة (الأجنبى) عند الفرنسيين أيضا فكاتبهم «روسو» يقول:

(إن الباريسى يعتقد أنه يعرف البشر عموما.. مع أنه لا يعرف إلا الفرنسيين وهو فى مدينته الحافلة بالأجانب ينظر إلى الأجنبى كأنه ظاهرة خارقة لا نظير لها فى الدنيا. ومن رأى أهالى الطبقة الوسطى فى تلك المدينة الكبيرة وعاشرهم سيدرك مدى ما هم عليه على الرغم من ذكائهم من غباوة وقلة فطنة. والغريب أن كل واحد منهم قرأ عشر مرات على الأقل وصف بلد ذلك الأجنبى الذى يدهشه كل تلك الدهشة).

ومن محامد «روسو» قوله فى معارضة «الرق» وليس بمستغرب:

(هل يستطيع رجل شرعا أن يبيع نفسه إلى رجل آخر بلا قيد ولا شرط اطلاقا.. بمعنى أنه يتنازل عن شخصه له، وعن حياته وعن عقله وعن ابنته.. وعن كل أخلاقيات أفعاله -أى يكف عن الوجود من غير أن يموت- مع أن الطبيعة كلفته مباشرة بحفظ ذاته. ومع أن ضميره وعقله يوجبان عليه ما يفعله وما يمتنع عنه.

وإذا كان العبد لا يستطيع بيع نفسه بلا تحفظ لمولاه، فكيف يستطيع شعب أن يبيع نفسه بلا تحفظ لحاكمه أو رئيسه؟ وإذا ظل العبد حكما فى ملاحظة عقده مع مولاه بحيث لا يتجاوز المولى حدود العقد، فكيف يحرم الشعب من مثل ذلك الحق ازاء حاكمه أو رئيسه؟).

ويقول:

(فى التشريعات الكاملة يجب أن تكون الإرادة الفردية معدومة تقريبا. وأن تكون الإرادة الحكومية محدودة جدا. وأن تكون الإرادة الشعبية أى ارادة السلطان العام للمجتمع هى السائدة على سائر الإرادات).

***

وبعد فإن كتاب «جان جاك روسو» إذا استثنينا منه بعض آراء فهو بلا شك كتاب فكر. ولكن هذا الكتاب الذى أحدث هزة عنيفة فى أوربا.. أضع أمامه فى اعتزاز وثقة من كتبنا:

* دستور الأخلاق فى القرآن

وهو موضوع رسالة الدكتوراه فى السوربون للدكتور محمد عبدالله دراز.

* (تهذيب الأخلاق والأعراق) لمسكويه

* الأخلاق عند الغزالى.

هذه أمثلة فحسب تضاف إلى ما سطره ابن خلدون وابن عربى والشيخ محمد عبده.

وهنا مفتاح لإعادة قراءة تراثنا تقييم وتنوير ومقارنة.. والخروج من منطقة الانبهار الذى يدفعنا إليها مخطط التغريب..

أقول هذا مع إيمانى بوجوب وحتمية دراسة الحضارات كلها.. حضارات الآخرين وثقافات الآخرين ولكن دراسة الواثق بنفسه، وما أعطى. وما يملك.. فى غير انسحاق وفى غير انسياق.